الابهام في الحرب العظمى

وقفنا على مقالة في مجلة «القرن التاسع عشر» للجنرال السر جورج استون بعنوان " Jargon in the Great War " . وقد اراد الكاتب بلفظة Jargon هنا التلفظ باقوال لا معنى لها في الظاهر وانما جيء بها للابهام فهي تقابل لفظة الدش المستعملة في كلام العامة هنا والدردشة المستعملة في كلام عامة اهل الشام . وكلتا اللفظتين صحيحتان لغة على ما في التاج ومعناها الابهام . ويستعمل اهل الشام كلمة اخرى وهي اللَّغَش ويقول صاحب التاج ان اللغش النطق بمعاريض الكلام والمعاريض جمع معرّض خلاف المصرّح . وقد جاء في بعض الامثال ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب اي سعة . وبعبارة اخرى ان المعاريض كذب غير صريح فهي والحالة هذه شرٌّ من الكذب الصريح . قال كاتب المقالة :

اذكر ان الابهام نفعني في صغري . فقد تعلمت في بعض مدارس فرنسا وكان مستقبلي كلهُ يتوقف على اجتيازي الامتحان وفي جملةِ كتابة مقالة في موضوع يعين لنا . فاستشرت رجلاً خبيراً بالامتحان فقال لي ان نجاحي بعيد . لكنني كتبت صفحتين لا معنى لهما وكلفت من ترجمتها لي الى الفرنسوية ثم حفظتهما غيباً . وقابلت ذلك الرجل ثانية ليختبرني فعين لي موضوعين لكتابة مقالة فيهما وهما « الجنرال بولانجه » و « استخدام النساء معلمات في المدارس » وكان هذان الموضوعان حديث الناس في ذلك الزمان . فكتبت المقالة التي حفظتها غيباً وجعلتها تصلح للموضوعين بعد تغيير بضع كلمات . ولا ازال اذكر شيئاً منها حتى الآن . وهاك افتتاحها :

« يسوءني اني لم اشتغل بهذه المسئلة كثيراً وعليهِ أرى انهُ يعسر عليَّ التصرّف فيها بطريقة ملائمة . وعندي ان النقطة الاولى التي يجب توجيه النظر اليها هي هل » الخ الخ

ثم لما جيء بنا للامتحان طلب منا ان نكتب مقالة موضوعها "Esprit de corps" اي روح الحرفة او جامعة الحرفة فكتبت فيهِ مقالتي المشار اليها آنفاً فنجحت في الامتحان نجاحاً باهراً . ومنذ ذلك العهد تعلمت ان

اللت والعجن ينفعان احياناً . ولكني تعلمت شيئاً آخر وهو ان كثيرين من الناس اذا لم يفهموا عبارة مبهمة فسروها بما يريدون وهذا الامر يزيد الابهام شأناً كبيراً في احوال الناس العادية

وبعد انتهاء الامتحان عدت الى بلادي ومعي رفيقان ممن تقدم الى الامتحان وجازه . فدار بينهما الحديث التالي

الاول « عمّ كتبت »

الثاني « عن صحة الجسم طبعاً »

الاول « يا أحمق لسوف يسقطونك . ان معنى Exhibit le corps حضور الذهن »

وقد يظن ان هذه القصة مبالغ فيها ولكنها صحيحة لم ازد عليها شيئاً . وقد طالما جال في خاطري بعدها ان عظماء الرجال انما يلجأون الى الابهام لانهم اذا تلفظوا باقوال يفهمها كل احد انتقص من حولهم الانصار

ولقد كان للابهام شأن كبير في السنوات القليلة الماضية حتى يكاد يصح القول انهُ هو الذي جرّ الحرب علينا . خذ لك مثلاً لفظة "Encirclement" اي إحداق . ففي سنة ١٩١٤ كان الالمان يسرحون ويمرحون في جميع انحاء المعمور بلا قيد يقيدهم . فكان لتجارهم وكلاء في كل بلد يتجسسون تجارتهُ وصناعتهُ ويجمعون تجارة العالم كله في ايديهم . وكانت تجارتهم البحرية تتقدم تقدماً عظيماً . وكان سيل المهاجرة من المانيا قد وقف ولكن متوسط المواليد جعل يهبط فكان في البلاد متسع لمن شاء الاقامة فيها والمعيشة بهناء ورخاء . وكانت حال القوم المعاشية آخذة في التحسن والثروة آخذة في الازدياد . واذ بالامبراطور يخبر قومهُ بان هنالك من يريد الاحداق بهم . ففرنسا قائمة على جانب منهم وروسيا على جانب آخر والجزر الانكليزية بين البحر الشمالي والاتلنتيكي . على ان هذه البلدان كانت قائمة حيث هي منذ القدم وهي لا تستطيع تبديل اماكنها بل ستبقى فيها الى ما شاء الله ولكن مركزها الجغرافي فُسّر فجأة بانهُ مركز يقصد بهِ الاحداق بالمانيا . وهذا القول المبهم كفى لاقامة امة على بكرة ابيها واقلاتها من عقال عقلها والخروج من دائرة صوابها ومهاجمة جاراتها . وكان اسرع سبيل الى ضرب فرنسا

نبذ كل شرف وارسال جيش بطريق البلجيك يحرق القرى والمزارع ويقتل ويعذب وينهب ما شاء بداعي « الضرورة » وهي كلمة من باب الابهام ايضاً. ثم لما اخفقت الضربة التي وجهت الى فرنسا جعل الالمان يضربون في كل جهة وساد الناس رعب لم يسُدهم منذ القرون الوسطى . وقضي على الابرياء نساء واولاداً في البر والبحر . واستُعبد اهل البلدان المحتلة . ونبذ كل قانون وعُرف وعهد ادبي وميثاق دولي . وكل ذلك في سبيل الابهام — في سبيل لفظة الاحداق . ولم تقنع الامة الالمانية بمهاجمة جاراتها بل أغرت النمسويين والمجريين بالانضمام اليها واقنعتهم بانهم انما يحاربون معها لمصلحتهم لا لمصلحة دولة هوهنزلرن . وهكذا فعلت بالترك والبلغار

وفي سنة ١٩١٦ ظهر كأن اغراض المانيا الحربية تشبه اغراضنا حتى حار ابناء عمومتنا الاميركيون في ذلك فسأل الرئيس ولسن بلسانهم ما هو القصد من هذا القتال كله . أولا يمكن تسوية المسئلة بما يحقن الدماء ويوقف الفظائع والاهوال عند حدّ . فأبى اعداؤنا اذ ذاك يطلقون من الابهام سيولاً حتى أخذ انابا نفسهُ في سيل العواطف السامية التي تظاهر بها مخربو الكنائس وقتلة رؤساء الدين ومعذبوهم وخاربو البلجيك وذابحو امم برمتها من ارمن وعرب وغيرهم ومرتكبو فظائع لا يحصى عديدها في البحر بغواصاتهم

ويكاد يستحيل صدّ سيل الابهام الجارف الذي يرسل من برلين او حل مرسليهِ على الافصاح عما يريدون تماماً وعلى بيان البواعث التي بعثتهم على العدوان بضرب جيرانهم وعلى انتظار السلم في حين انهم لا يزالون يأتون الموبقات . وترى اقوال الامبراطور أكثر الاقوال وضوحاً وبياناً فاذا حاد عن موضوع أسرته ومزايا خدمة رجالها اصحاب السواعد المدرعة والدروع اللامعة والسيوف المسنونة وغيرها من ادوات القتال وقع هو نفسهُ في الابهام من مثل لفظة الاحداق وغيرها من ألفاظ التعميم . وهذا هو ايضاً شأن الاميرال فون تربتز في احاديثهِ مع كتّاب الصحف في ترديده كلمتي « حرية البحار » . فان لهذه العبارة وقعاً عالياً في الآذان أطرب كثيرين من اهل السلطة والعدل . اما نحن فلا نفهم منها الا ان تكون الجيوش الالمانية حرّة مطلقة اليد تعيث في البلاد التي هي عبر البحار بمثل ما عاثت في البلجيك وغيرها من البلاد التي بلغتها بطريق البرّ

ومن الابهام المضرّ عبارة « صلح بلا ضم ولا غرم » . فان عبارة مثل هذه محدودة اللفظ واضحة المعنى الى حدّ ينكرهُ وزراء المانيا فلا يفوهون بها لانهم تجرُّ الذين ارادوا هذه الحرب ودبروها الى حيث يهتك الحجاب عنهم ويفتضح امرهم فتثور ثائرة مجلس النواب الالماني وجمهور الامة معاً . ولكن كان لهذه العبارة تأثير عظيم في الحالة الحربية لانها تركت الجيش الروسي مكتوف اليدين في اعظم ازمات هذه الحرب شدة ولولا ذلك ما تيسر للالمان والنمسويين مهاجمة ايطاليا ولكانت ضربة الجيش البريطاني للالمان عند كبراي اعظم تأثيراً وابعد صدى مما كان . ويخيل الينا انهُ سيكون للقلم ما سيكون للسيف من الاثر في الفوز بهذه الحرب اذا ابدى صاحبهُ براعة وحذقاً في كتابة الالفاظ المبهمة الطنانة الرنانة

ووزير الامبراطورية الالمانية الآن — وهو الكونت هرتلنغ — يحتاج الى مهارة خاصة في الخطابة لا في الكتابة . وقد كان التناقض في اغراض الحرب ممنوعاً بين الالمان في اوائل الحرب لاسباب ظاهرة ولكنهُ ليس ممنوعاً الآن . والوزير الالماني مخير في كلامهِ بين الابهام والروغان فاختار الكلمة الثانية على الاولى . فمن اقوالهِ ما يأتي « وقد كانت غايتنا الحربية منذ اول يوم من ايام هذه الحرب الدفاع عن وطننا وسلامة املاكنا وحرية حياتها الاقتصادية واستقلالها » . وهذا القول ليس ابهاماً بل كذب فلا يندرج والحالة هذه تحت موضوع مقالتنا . فان الوزير يعلم ان الامة الالمانية سمعت مثل هذا القول مراراً وتكراراً حتى باتت مصدّقة لهُ . وسامعو قولهِ موالون لهُ فلا حاجة بهِ الى الابهام ولكنهم منقسمون بعضهم على بعض في مسئلة اخرى . فان منهم فئة تريد ان تعطي الامة صوتاً في سياسة البلاد الداخلية وفئة تعارض في ذلك شديد المعارضة فالحالة تقتضي ابهاماً في هذه النقطة ودونكهُ فيما قال الوزير :

« ان النيابة البرلمانية في مجلس النواب مبنية على اوسع القواعد . فاذا جدّت مهامّ لم تكن اولاً ونشأت حاجات جديدة ضمن حدود الدستور الامبراطوري فحينئذٍ تسعى الحكومة الامبراطورية الى الرغبات والمقترحات حالاً وعلى الدوام . وكلكم تعلمون مبادرة المقامات العليا في اعظم ولايات المانيا المتحدة الى الشروع في الاصلاحات الواسعة النطاق بسعة صدر ما بعدها سعة » . وقد اشار بهذا القول الى مشروعات قانون الاصلاح الانتخابي في بروسيا وهي مشروعات حسنة النسبك

لفظاً ولكنها تترك السلطة الحقيقية حيث كانت اولاً . ولكن هذا الابهام الواسع سهل في جنب الابهام المطلوب من الوزير اذا رام تفسير شروط الصلح الذي تريده جميع الاحزاب في المانيا. فان آراءها لا يستطيع التوفيق بينها الا رجل بالغ منتهى البراعة في الابهام بحيث يلوح الابهام على خلوه من المعنى كأنهُ ينطوي على معانٍ كثيرة

فعندك اولاً الحزب الذي طلب الحرب لذاتها وهو حزب الضباط بما لهم من الجاه الاجتماعي والنفوذ السياسي والامتيازات الخاصة . ورجالهُ لم يشهدوا حرباً قبل الآن . اما الجيل الذي اشترك في الحرب فقد مضى لسبيله او فقد ما كان لهُ من النفوذ . والجيل الجديد لا يعلم عن الحرب الا انها لبس الملابس الرسمية وحضور الاستعراض والطنطنة الحربية والسير في مواكب النصر الى عواصم البلدان الاجنبية واقامة معالم الزينة الباهرة في مدن بلادهم . فالحرب في نظرهم هي ما في نظر الولد . وولي العهد كالدمية في ايديهم . وقد علمتهُ معارك فردون شيئاً من حقيقة الحرب . والمظنون ان هذا الحزب فقد شيئاً من نفوذه ولكن لا يزال يحسب لهُ حساب كبير

وعلى الوزير الالماني ان يوفق بين احزاب الحرب على كثرتها . فهناك الحزب الذي لا يقنعهُ الا انتصار الاغراض الالمانية وهي : (١) انشاء سلطنة المانية عظيمة في اواسط افريقية تمتدّ من الاوقيانوس الهندي شرقاً الى الاتلانتيكي غرباً . و (٢) حرية البحار بضمّ سواحل البلجيك وشمال فرنسا وقهر الاسطول الانكليزي . و (٣) حرية البحار باغراق جميع السفن التجارية المعادية والمحايدة التي تركب البحر في زمن الحرب وتثل بحريتها . و (٤) زيادة املاك المانيا من املاك روسيا . و (٥) السيطرة على المواصلات بسكة الحديد بين برلين وبغداد وجني جميع المزايا السياسية والاقتصادية التي تتوقف على هذه السيطرة . و (٦) سيطرة روسيا على سائر المانيا وسيطرة المانيا على [illegible] امبراطور النمسا وبعض صغار الملوك تابعين لبيت هوهنزلرن . فهذه الاغراض المتباينة المتضادة يجب التوفيق بينها بالابهام ويدعوى ان المانيا اقدمت على الحرب دفاعاً عن ارضها ولو كانت هذه الدعوى حديث خرافة

وهناك ايضاً حزب صغير ادرك هذه الحقيقة وهي ان لا امل في نصر المانيا يضع هذه الاسلاب كلها في قبضة المانيا ويبرّر عبادة القوة التي لا يعصمها عاصم

من الادب العالي بما تنالهُ البلاد من المزايا المادية التي تكتسب من تلك العبادة . وهذا الحزب يرى بعين الحكمة والعقل ان الحياة على هذه الكرة لا تطاق اذا اجمعت الامم كلها على عبادة القوة التي لا شكيمة لها تكبح جماحها ولا شرف يشفع فيها . وهو يشك في ان القوة الغالبة تكون دائماً في جانبهِ . نعم انهُ لا يصدق ان القوة الغالبة يمكن ان تكون في جانب اعدائهِ ولكنهُ يظنّ ان هذه الحرب قد تنتهي من غير ان يكون فيها غالب يفرض شروطهُ على خصمهِ . وحزب هذا شأنهُ قد ترضيهِ قاعدة «لا ضمّ ولا غرم» . وهذه القاعدة اذا فسرت بحرفها الظاهر فمعناها ان يرجع كل فريق من المتحاربين الى الارض التي كانت لهُ قبل يوليو سنة ١٩١٤ ولكن هذا التفسير يقيم احزاب النصر ويقعدها . فلا بدع اذا طلب من الوزير الالماني والحالة هذه ان يكون ماهراً في الابهام وخلط الكلام

وربما جاء يوم يطلب منهُ فيهِ ان يرضي حزباً آخر صغيراً جداً لكنهُ مثلها سريع النموّ والكبر . وهو الحزب الذي يعلم ويعتقد ان ليس بين البلاد المحيطة بالمانيا بلد نوى مهاجمتها وان الحرب الحاضرة حرب فتح تدار على خطة قضت هيئة اركان الحرب الكبرى في برلين سنين طوالاً في رسمها واعدادها . وقد شرعت تنفذها سنة ١٩١٤ حسبان ان هذا الوقت افضل الاوقات لتنفيذها

اما الحقيقة فتسير على سهل ولكن مسيرها لا يرد وانصارها في المانيا قليل ولا سبيل امامهم الى رفع اصواتهم . وهؤلاء لا يقابلون بالابهام الذي يقابل بهِ غيرهم بل بالمدافع المتعددة الطلقات وقلب الحقيقة فيما يتعلق بسبب الحرب . وعليهِ فان الوزير لا يعنى بهم الآن بل السلطة العسكرية فترسلهم الى خط النار

وانتقل الكاتب الى بيان المسئول عن هذه الحرب فقال :

ان الحزب الذي عليهِ مسئولية الحرب بادىء بدء هو الحزب الذي اراد الحرب حقيقة اي حزب الحرب البروسي الذي لم يحتمل بسرك نفسهُ صلف رجالهِ وغطرستهم . فان هيئة اركان الحرب الكبرى في برلين ارادت الحرب لانها عرفت انها مستعدة لها وعليهِ امّت نصراً هيناً عاجلاً . واعتقدت ان النصر مكفول لها لان الامم الاخرى لم تستعد الاستعداد الكافي للحرب بسبب مقاومة الحرب المضاد للحروب . ولولا ذلك ما كانت الحرب . ولا ريب اننا نحن الانكليز اعرنا آذاناً صاغية لبعض ذوي الاوهام الذين حاولوا اقامة الادلة على ان الحروب

الكبرى لن تقع في مستقبل الزمان لاسباب مالية واقتصادية . ولكننا علمنا الآن علماً ليس بالظنّ ان الحرب ليست وهماً من الاوهام بل حق اليقين . ونحن نريد ان ننتصر في هذه الحرب انتصاراً فاصلاً يكفي العالم تجدد هذه الاهوال الى ما شاء الله . ولسنا نريد سلماً واهناً يترك البلدان الالمانية والنمسا والمجر وتركيا والبلغار في قبضة الحزب العسكري البروسي والاّ لم يلبث ان يشرع في اعداد العدة للحرب القادمة وقد اخذ يتحدث بها من الآن

وهيهات ان ننتصر في هذه الحرب بالاقوال والتحدث بقتل روح العسكرية والكتابة عن ذلك وانما ننتصر بقتل الجنود الالمانية . وهنا كثيراً ما يقف الابهام عثرة في سبيل الخطط الحربية وتنفيذها . والابهام لغة الذين لا همّ لهم في البلاد الموالية او المعادية الاّ اطراء واضعي الخطط الحربية ومنفذيها عن قتل جنود العدوّ وكسر جيوشه والانتصار في الحروب البرية بالطرق المبنية على الخبرة المكتسبة من الحروب الماضية. فان النصر في الحروب لا يكون بالجيوش وحدها. وامهر القواد يبيت عاجزاً في حرب عظيمة تدور رحاها بين امم كبيرة ما لم يبين لهذه الامم اغراض هذه الحرب . وليست الجيوش عندنا سادة للامم التي تدافع عنها بل آلات في ايديها للدفاع عن وجودها القومي. ولولا هذه الجيوش لنشر الحزب العسكري البروسي ورجال دولة هوهنزلرن في العالمين عبادة القوة التي لا رادع لها من الناموس الادبي . فالابهام انما ينفع حكام المانيا وسائر الذين يهمهم كتمان سبب الحرب وطريقة السير فيها والذين يريدون الاستفادة من المصائب التي جرتها على العالمين . اما نحن فليس لدينا ما يحملنا على طلب الاستفادة من الابهام

لقد دخلت الحرب في بلجيكا سنة ١٩١٤ لان جيوش المانيا اجتازت حدود البلجيك في صباح ذلك اليوم مع ان الحكومة الالمانية متعهدة باحترام حياد البلجيك . ولسنا نريد من الحرب شيئاً ولا نطمع في شيء سوى ان نضمن سلامتنا من السيطرة البروسية وان نعيش آمنين على سربنا وهذا ما لا يتسنى لنا الاّ اذا بقيت طرق مواصلاتنا مع العالم مفتوحة بحراً . وكذلك ينبغي الوقوف في جانب حلفائنا حتى يبيتوا هم ايضاً آمنين ضمن دائرة العقل من اعتداء المانيا عليهم. وينبغي مساعدتهم على انقاذ اقوامهم من النير الالماني . هذه هي اغراضنا الحربية ولا مجال للابهام فيها . انتهى ملخصاً